المقدمة

أستراليا كانت وما زالت معروفة بلقب "البلد المحظوظ"، والمكان الأكثر طلباً للذين يبحثون عن مكان آمن هرباً من الحروبات، أو من الاضطهادات الدينية، أو بكل بساطة لكل الذين ينشدون الثروة والاستقرار.

ومعظم المهاجرين الذين جاؤوا الى أستراليا سواء كان خلال فترة اكتشاف الذهب، أو بعد مرحلة الحرب العالمية الثانية، وصلوا اليها عن طريق البحر، والذين اختاروا ولاية فيكتوريا مقراً لهم، نزلوا في مرفأ ملبورن والمعروف باسم Station Pier.

لذلك، نجد أن Station Pier له مكانة خاصة في قلوب هؤلاء المهاجرين الذين وطأت أقدامهم أرض هذا البلد المضياف على مرفأ Station Pier منذ زمن طويل، واصبح المكان المقصود لدى هؤلاء العائلات. فكانوا عندما يشتاقون الى ذكريات الماضي، يذهبون الى هذا المرفأ لاستعادة ذكرياتهم. فنجد الزوج وزوجته اللذين التقيا لأول مرة على رصيف هذا المرفأ كعروسين، أو الأب والأم اللذين التقيا بأولادهما بعد غياب طويل.

إن معظم المهاجرين الذين يذهبون الى Station Pier الحديث لإحتساء القهوة وإحياء ذكرياتهم، يصطحبون معهم العائلة، ويتحدثون الى أولادهم وأحيانا الى أحفادهم عن أخطار الرحلة الطويلة على متن البواخر التي كانت وسائل النقل البحرية الوحيدة في تلك الأيام. فكانوا يحيون تلك الذكريات الفرحة حيناً، والمؤلمة أحياناً على أمل أن هذه الذكريات ستنطبع في أذهان أولادهم وأحفادهم لعلهم ينقلوها بدورهم إلى من سيأتي بعدهم، وذلك إحياءاً للذكرى والتاريخ.

والجدير بالذكر أن معظم المهاجرين الذين اختاروا ولاية فيكتوريا مقرّاً لهم، قد استوطنوا، وتفاعلوا وتأقلموا جيداً مع المجتمع المحلّي، وحققوا نجاحاً بارزاً في كل مجالات الحياة. غير أنّ عدداً قليلاً جداً من هؤلاء المهاجرين، قد اختاروا العزلة والحياة الغَيتية التي تعزلهم عن بقية المجتمع، وقاوموا كل محاولات التكيّف والتأقلم في المجتمع الواحد خوفا على انصهارهم في هذا المجتمع وخسارتهم لعاداتهم وتقاليدهم. والبعض الآخر ساءت أحوالهم و لم يحالفهم الحظ، فسقطوا من خلال الشبكة الاجتماعية إلى مستوى يصعب الخروج منه.

أما "كمال" وزوجته "زهرة" وابنهما "سمير"، فقد اختاروا الهجرة بحثاً عن وطن يؤمن لهم العيش الكريم. إنّ اختيار الهجرة بالنسبة لهم كان أمراً صعباً. غير أنهم قد ضاقوا ذرعاً وبلغ السيل الزُبى من أنظمة حرمتهم العيش الكريم، وهجرتهم الوطن لم تكن نمطاً من أنماط استكشاف بلاد جديدة، ولا حباً بالمغامرة، وليس لها أية علاقة في نشر الثقافة والحضارة لشعوب لم تتعرّف عليها بعد – كما يدّعي القيمون على الأنظمة بأنها جزء من جينات المواطن – غير أنها فعلاً هرباً من تلك الأنظمة التي يشرف على إدارتها زعماء أفسدهم حب السلطة والسيطرة الدينية وحرموا الشعوب من حقوقهم الاجتماعية المشروعة. حرموهم من حق العمل، وحق العلم، وحق التطبيب، وحق الشيخوخة، واشبعوهم كلاماً فارغاً بأنهم شعوب تحب المغامرة والاستكشاف. أما الواقع المعيشي، فهو عكس ما يروّجون له. فالهجرة هي الباب الوحيد المفتوح أمام المواطنين الفقراء للدخول منه الى عالم جديد، الى وطن بديل يحترم مواطنيه ويوفّر لهم العيش الكريم. يا ليت هؤلاء الحكومات تعي خطورة هجرة أبنائها هرباً من مظالمهم، وفسادهم، واستعبادهم، وحرمانهم لهؤلاء المواطنين، فيُصلحون

ما فسد منهم، ويحدّون من استكلابهم، فلا يحللون ما هو محرّم عليهم، ولا يستغلون ضعف المواطنين، لعلّهم بذلك يشجعون المواطنين الصالحين للبقاء في وطنهم الذي لم يهجروه طوعاً، بل قسراً، قاصدين العيش الكريم في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد فُرضت الهجرة على كمال وزوجته وابنه سمير واختاروا ولاية فيكتوريا لتكون وطنهم البديل، آملين الحصول على ما سلبهم وطنهم الأم من عدالة، وحقوق دون الحاجة للجوء الى الوسائل الزحفطونية أو التـــزلّم لأحدٍ من هؤلاء البكوات أو الزعماء أو الأمراء، أو أي من رجال الدين الذين يدّعون تمثيل الله على هذه الأرض. فهل سينجح كمال وعائلته في تحقيق أحلامهم، أم سيفشلون؟